مجموعتان من الشعر الفلسطيني

عز الدين المناصره : تتنامى ثورته في وضوح ايديولوجي

محمد القيسي : تراجيدي حارق ، عاشق للوطن والمرأة

● بقلم : موسى صرداوي ●

جمرة تمرد وثورة ، اشعلت صدري شاعرين ، بخصب الشعر، عز الدين المناصرة في « الخروج من البحر الميت » ومحمد القيسي في « خماسية الموت والحياة ».

والشاعران يختلفان في اسلوبيهما ورؤياهما الشعرية ، لكنهما يقتربان ليلتقيا على طريق واحدة هي ثورة الشباب الفلسطيني على غربته ، مظالمه المتعددة الاطراف ، وقائعه اليومية ؛ وسرقة الوطن وضياعه .

المناصره ، ساطع التمرد ، كشاف لمواقع الزيف من اضمحوه، متحديا ، مندفعا بلهب رجولة الكلمة والثوره . يختار ان يهدم باللفظة والاسلوب واللغه الاطر التقليدية للشعر والمفاهيم، بارع في تحديث التراث الشعري ، جريء القول والنبرة ، ثورته تتنامى في وضوح ايديولوجي، له مصطلحه الشعري الخاص ، ونفسه الشعري المميز ، يتمرد على النفي ومراكبه .

والقيسي تراجيدي حارق ، عاشق للوطن ، «الارض والمرأة» لما يتجاوز بعد حزنه ورومانسيته، وجداني الاحاسيس والصور والخيالات، يسافر بحثا عن الطمأنينة ، ويظل حزينا في جمالياته الشعرية ، لا تقترب مخيلته في اللغة الشاعرة، ولا يرحل الى المطلق ، معلق بين الانتماء واللاانتماء .

على ان هذه المقارنة الاسلوبية ، تجعلني اتناول ديوانيهما وقضاياهما منفصلين ، وذلك كي لا اقع في « اشتباه » المقارنات .

وابدا بخماسية الصديق محمد القيسي .

التسمية لا شعرية ، وحبذا لو بقي عنوان المجموعة « الموت خلف الباب » ففيه ، على الاقل قرب من الشهادة العصرية ، على «جريمة القتل الابداعي والجسدي » معا .

ثم ان قصيدة « خماسية الموت والحياة » مفتتح الديوان وعنوانه ، صفعتنا على اوجهنا، بلغتها القبلية والاتكالية ، العشائرية :

مد تفتحت للحياة وقلبي
راعف الشوق ، مستطار الحبي
فامنحوني يدا تساند ظهري
واشهر خنجرا يحارب دوني
ودعوني اقابل الموت وحدي
حاف دمي ، وبات كل سحبي

ان « منح » اليد و « شهر » الخنجر ، مواصفات عشائرية مرفوضة ، ثائرية تجاوزها الانسان المعاصر ، والخروج من الازمة لا يتحقق بمثل هذه الدعوة ، والغريب ان البحث عن يد تسند الظهر ، لم يكن نتيجة انفعال ماساوي ، لا يتكرر ، بل هو طلب ملح عند الشاعر حيث يقول في « عزف منفرد » :

وانا ابحث في كل الوجوه
عن يد تسند ظهري

وفي « الصورة والتذكار » يحمل الاصدقاء مسؤولية الخوض في نهر الدم ، — ولا القاكموا قربي — على اننا اذا تجاوزنا هذا الطلب الملح على ذهن الشاعر ، فاننا نجده اكثر اصالة وادراكا وتحسسا للمواقف والصور والمعاني ، ورغم ان الموت يتعقبه في كل مكان ، في كل قصيدة ، الا ان عشقه ينجيه من السقوط والعثار والنفي المستمر للذات المغتربة .

انت ان اصبحت عاشق
سقط المحتل في الطين، ويبقى
وحدة مجد الوطن .

ولهذا فهو يتقدم للموت بشجاعة وحب :

عاشق الموت بوجه الريح عاشق
اي لون فوق وجه الارض، في نسج البدن.

من هنا تاتي قيمة شعر القيسي، عشق الارض هو مطهر الشاعر ومعبره الى الثورة :

حينما تسقط في ساحاتنا حتى الحجارة
حينما يهدم بيت تلو بيت
يصبح الموت اشارة
وبدايات لصوت .

اي صوت هذا الذي يتحدث عنه القيسي ؟ انه لا شك صوت الثورة ، صوت الشاب الاسمر، المهموم ، وكل همه الدخول الى الارض المحتله، ليساهم في حرب التحرير الشعبية ،

ويشيل الهم في جبينه سهما ، كوكبا.
طلع من بوابة الغرب شاحب
لم يزل يعرش الارض اغترابا
وهي لا تعرف بعد
انه سار محارب
ربما يبحث في الوديان عن كسرة خبز
ربما يعبر نهر الموت ظمآنا وجائع
ربما يرقب اطلالة نجم
وهو في ليل الخنادق
مشرع صدرك للريح
وطلقات البنادق .

ولان الشاعر يحيا بالعشق ، فهو يرسم قصته ، مع الوطن والمراة ، — وكلاهما يتداخل عند القيسي في الاخر — ، نبضة تلو نبضة ، وبينهما يجد ذاته وحقيقته ، يقترب منهما ، وعندما يبتعد عنهما ، يعيش مخلعا من جذوره ، موحدا في الصمت والعجيمة ، وقبل ان تعجمه دوامة الرحيل الى « جزيرة الاحلام » ، كان الشاعر يقترب من معشوقته — الارض — : على طريقة قيس وليلى في حبهما العذري ، وما اجمل ما يقول لفلسطينه المعشوقة :

عذبتني وانا امضي اليها
عثرتني بومال الارض ، آه
، كم كان جميلا
ذلك الرمل الذي يمسح عن وجهي التعب
وهو يستنبت في قلبي اشجار الغضب ،

وسترى « ليلاه » تجيبه من خلال معاناته في « تورق الاشجار » :

تحت حد السيف يا حبي
وفي ظل السلاسل
وعلى الدرب الذي يفضي لساح الملحمة
تطلع الان من الجرح
اناشيد وعود وسنابل
وشظايا فوق ارض المعركة
يا حبيبي ، فتصور :
حسنا ما اجمله

هكذا يصار الى التضحية عندما يعشق الشاعر وطنه ، على ان الرجوع الى الوطن ، ظل في اطاره الرومانسي عند صديقنا الشاعر، فهو يتمنى موتا انتحاريا بعذاب رومانسي :

اغرس السكين في قلبي
وحليبي اموت
شهقة تتبع شهقة
في حنايا الزرع ، في ظل البيوت
واسدلي آه على وجهي حزنه
ودعيني لدى الاعشاب
ابتل ، فأحيا ، واعود

اما الحبيبة — المراة ، فهي على صورة الوطن ايضا ، يحبها كما يحب الوطن ، لم لا .. وهي وطنه الثاني ، حبيبته في بيروت تغدر به ، ولكنه ظل امينا مخلصا لها ، وكما يسعى للعودة الى الارض ، يسعى اليها ويجد فيها ما يجده في الارض ، الحد بينه وبينها « اسلاك » تتقطع آهات قلبه الذبيح عليها ، وهو يشتم في حروفها « تنفس الاعشاب في الحقول » ، ان اسلاك الحبيبة هي الحد بين العودة — الى الصدر الحنون — الارض او المراة سيان، وبين الاغتراب والنفي . يقول القيسي :

من يمنع الحنان في بيروت
فاطمة التي شممت في حروفها
تنفس الاعشاب في الحقول
فاطمة التي تعرفت على اسلاكها
آهات قلبي الذبيح

ومن خلال هذه القصيدة يعطينا الشاعر ، صورة حبه الاول والاخير ، للوطن الذي يحبه ، ويكتب ، ويناضل من اجله ، ويسجل كل شيء عنه في دفتر « اوجاعه وجروحه » . ان هذه القصيده ، ذات صوتين ، الصوت الاول الحب: والصوت الثاني الاغتراب ، وهو في الحب، مثل ابي فراس ، يخشى ان يموت وهو في قيد الغربة ، وعلى فراش ليس هو فراش الشهادة :

ابو فراس ها هنا يموت
من دون قيد الروم
ما هنا يموت

واما الصوت الثاني ، ففيه عتاب رفيق ، لاهل المعشوقة الذين يعارضونه ، وقد اصابوه واخاه ، بالنار ، ومع ذلك فهو يحبهم برغم اغترابه ونفيه :

وستمر ، ستمر
صدر توفي المشرع الكوى
لان اصمكم
في جانحي يا احبتي
برغم انكم
توسموا اخي وصاحبي
ولم تزل في ظهري الحمر طلقه
وفوق حاجبي
نار جرح

كل ذلك من اجل الوطن ، الوطن — الارض ، والوطن — المراة ، وكلاهما يلتقي في الاخر ، ولا ينفصل عنه بحال .

والمجموعه كلها ، عشق الوطنين ، تخلصا من عذاب الموت ، مغتربا وحيدا ، يقول في قصيدة « تعالي نبوس التراب » :

تعــالي .
لنمحو اسماءنا من جواز السفر
تعالي لنكتب اسماءنا من جديد
تعالي لنرسم خارطة للبلاد
وتعالي فيا انتظار البريد
ويرتفع سوره عاليا .
تعالي نبوس التراب
تعالي نعانق كل الشجر
تعالي نسطر تاريخنا
وسط هذا الحريق .

الذي ينادي هنا ، ليس الا الفدائي يطلب المعركة من اجل استعادة الحق والارض، والفدائي يصر على معركته حتى لا يبرأ منه الوطن ، ولان الاصدقاء خانوه علانية وخانوا ارضه ومعشوقه:

تعالي نقيم لنا منزلا او كمين
نواصل منه لظى المعركة
لقد خاننا الاصدقاء
علانية فاحذري من ستار النهاية
والمحهم يستبيحونك الان .
يصلب وجهك في كل ساعة
وتمحي تضاريس جسمك ،
تمشي عليها الهياكل

انه يخشى على ارضه ان ترحل الى الابد ، لكنه يدرك ، انها — لما تمت بعد ولم تهاجر — ، ولذلك ، فهو يثور في وجه الريح التي قالت له : (سافري حبيبك وهاجرت !)

ضربت رأسي في الجدار
حضنت بندقية عتيقة
وكان صوت النار
يجيء ناسجا محملا
باطيب الثمار ،

وفي حين يشقى القيسي ، المحب والعاشق للوطن في غربته ومنفاه، ويتغنى بعذوبة واحتراق، نجد عز الدين المناصرة ، اكثر انغراسا في الارض ، واقوى على عشقها ، بخصب يزو

● حسين الجوني

عرضت دار الفن والادب ، ابتداءا من الخميس الماضي ، ٥ اذار الجاري ، الاعمال الجديدة للفنان حسين الجوني . ويستمر المعرض مفتوحا حتى ٢٢ منه .

وستنشر « الهدف » دراسة نقدية للمعرض فيما بعد .

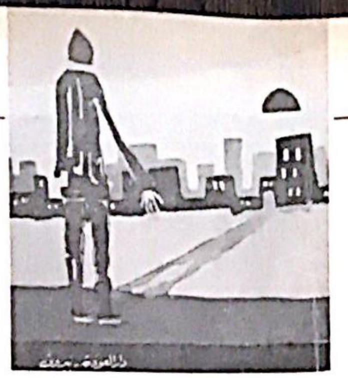

ويتمرد ويتعلم الجراءة والوصول الى قاع البئر، وهو على طريق « مواصلاته الى جسد الارض».

تعلمت منك الاتجاه في التربة البكر، منك
تعلمت كيف اغوص لبئر الوصول
وادفع زهو شبابي على شاطئيك
رايت الطحالب والنرجس الاخضر الثائر
النافر ، الهائج، مرجاني في الدخول.

انه شاعر يعتز برجولته ، يخطو في الشعر الحديث ، الخطى السباقه التي قادت شاعرا قبله هو ابو الطيب المتنبي ، الى التمرد على كل من حوله ، رغم تطوافه في الارض، واعتراضاته لمواصلاتها، وموته على مفترق طرق هذه المواصلات، في غياب عدم تقدير البطوله . ولذلك فان المناصرة ، لا يصادق من الحاضرين احدا ، وانما يتذكر المتنبي وابا تمام في الشام ، فيلتقي معهما ، ويتحدث لهما وعنهما ، في خماره دمشقية ، وفيما هم يشربون، حتى كشفت الخمر عن اسرار المتنبي :

وسكرنا ..
حتى جرت الخمرة في وادي الاسرار
فبكى المتنبي وانهار
سقطت موتى اطنان الشعر
من جوف ابي تمام
وحكى المتنبي عن حمص
عن رحلته في جرز الشمس
فبكينا « حبل النار »
وسقطنا في بحر التذكار .

ويتحدث في دمشق مع عبد يغوث حيث يلتقي معه في تظاهرة ، ومع ديدالوس ، ذلك القس الشاهد على النفي والعذاب والصلب، وينتشي بتذكاراته عن دمشق ، تاريخها ، واحياءها وكل ما فيها من تناقضات ، والشاعر يعشق دمشق عشقه للكاس — كاشفة غطاء الاسرار — يتحدث عن جوعه وكبره وصعلكته ، ونومه على الارصفة ، ويكشف عن هويته وموقعه الطبقي : انه ذلك الثائر على الفقر ، ولذلك فهو في « المدائن الموحشة » ، المدائن التي صنعتها البورجوازية والاحتكارات الراسمالية ، «شهاب من الكفر» :

انا في مدائنك الموحشة
« شهاب من الكفر » ابحث عن وجع الارغفه
وعن سلف الفقر حين يقال له لا تقل في ...
محالسنا العامرة
انا في مدائنك الموحشة
رسيفك قبل الصباح
انا شارب الخمر في الليلة الصافية
انا حارس الفجر قبل الرحيل
انا الجوع والموت والمستحيل .

واذا كان ثمة صعاليك ، اكثر انسانية من اجواد زماننا ، واكثر اصالة وبحثا عن القيم الانسانية ، اذا كان ثمة شاعر من نوع « عروة ابن الورد » يقسم لحمه في جسوم كثيرة ، ويحسو قراح الماء والماء بارد اناؤه شركه ، يشرب منها جميع الفقراء ، فان المناصره ، هذا « الصعلوك العصري » ، الثائر على كل الاطر والتقاليد ، والمتجول في مواصلات جسد الارض ، بكبرياء وعناد ، يستطيع ان يمثل روح عصره ، في ثورته الساحره، المتفجرة، ببراكين الغضب، والناسفة الصاعقة ، بقوة ، لكل ما هو كائن ، في وهج البركان الساطع ، انه يلتظي كالبركان ، ومثل وطنه ، يكشف كل شيء ، الخيانة ، والجبن، والمسوخ ، والقوادين ، ورعاة مصالح الامبريالية : ويظل نقيا نقاء وجه الوطن :

كلهم عاشوا على وجه اوثان
ايها الوجه الذي حسبت به الموت
وطفت الازمنه
منذ عشرين سنه
سيذوب الثلج يوما وارالك .

ويسخر الشاعر من الذين يسمون احرارا ، وقد نامت مدائنهم نوم رؤوسهم ، فهو يتحدث الى دياره عنهم :

اتيتك من سفري في البلاد
رجوعي على باب احرارها
اطوف قصور الامير ، ولا ...
من يعين على نارها
واسكب في القلب من الكؤوس
والعن ايام احرارها
مدائن نامت نوم الرؤوس
وقلبي على نار ثوارها .

هؤلاء ، الاحرار ، الذين لم يستطيعوا ان يحرروا انفسهم من اطماعهم واخطائهم وتبعيتهم، هم الذين يقول فيهم المناصرة في « توقيعات » :

زرعوا الاحجار السوداء
اكلوا ذهب العتاب
وزرعنا عنبا ، وحصاب
فلقينا موت الاحباب ،

انهم اصحاب الافكار القديمة ، والاقوال القديمة ، مدعي المحافظة على التراث ، وهم سدنة الخيانة وبوابوها ، هؤلاء الذين يجمعون الفقراء ولا يفعلون من اجلهم شيئا ، فقط يقولون لهم اصبروا ، انه يخاطب واحدا من كبارهم :

«ابانا الذي في شعاب المدينة يوصي
الاعاريب : شدوا البطون... اصبروا..
صابروا ... آه يا فقراء
رميت كتابك في النيل ، بلت عليه ،
وكل امانيك ساعت هباء ،

ويوجه صفعة الى اصحاب الغيبيات ودعاتها وحماتها من القوالين ، غير الفعالين :

ابانا الذي في السماء ،
اذا لطمونا على حدنا .. سلطهم..
بالبنادق ، يرمي وصاياك تحت الحذاء ،
ابانا الذي يشعل النور في الصحراء ،
ويخرج مرطور سماء، حمل نورا وحمرا
وماء
سياؤك مات ونارك ماتت
طريق الهدى احمر . لا طريق السماء .

لماذا اذن نتوجه نحو السماء ، وعلى ارضنا العذاب ، خير لنا ان نقيم العدل على الارض ، من ان نتصوره في السماء .

وقصائد المناصرة ، تحدي وتهكم من كل الشعارات الرخيصة ، والسادة المداجين ، والافكار المقطوعة الصلة والاسباب ، في عصر العلم والثورة ، حيث يقول في « اضاعوني » :

الاخرون تنكروا : « ادعيدريك قائلا »
وكأنهم ما مرغوا تلك الدفوف على
قبات موائدي
« والله لا تدمي ملكي باطلا »
وبكى حصاني فارتميت من التعب
وسمعت والينا يقول وعينه فيها القذى
« لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى »
حتى يقال على مسامعه الخطب ،

ويقول في — انا — نحن — الكهف — الحلول :

يمشون في سواحل المنى
ثلاثة رابعهم انا
وعدهم انا .
ومن انا
اهرامهم تحت سياط الشمس في الظهيرة
انا الذي انتظر الجيوش
اعيش في رمانهم ولا اعيش
انا الذي اموت في الصحراء كل يوم
انا الذي ... سيوفهم
يلقى على اللوم .

هذه هي القضية ، سادتنا ، يتربعون على كل ما يشتهون ، ونحن ، يجب ان نبقى عبيدهم ، ولذلك فهو يرد عليهم في « محاورات على الباب العالي » ، قائلا : انا صاحب الارض، ومالكها ، غير ان الوالي ، يريد قتل الشاعر ويلقي على راسه الحجر وهو نائم .

جئتك .. من اقصى جبل في الشام
لا املك الا ما يملكه امثالي
تمر ونخيل وكروم
وحمامات فوق البيت تحوم
لكني لما جئتك ، كنت طري العود .

ولكنه في نهاية القصيدة ، الجلسة الخامسة منها ، يقول :

اتيتك في داخلي نية للرحيل

...

وللفقر يا سيدي ثورة قد تطول
اتيتك لا الحزن في خاطري
سآتيك بعد الرحيل
اعرى النائمين من زحفها
ومن فوق تهديك يا سيدي
وآتيك كابوس رعب يدق العمر
وآتيك في التمر المحترق ،

الغاية من شعر المناصرة ، الثورة . انها تاتي لتقطع على علية القوم ، جلستهم ، وتفاجئهم، بالحقيقة ، الحقيقة ، التي تقول نحن الشعب، نحن الفقراء ، نريد خبزنا وحضارتنا ، نريد ارضنا لنفتح به ، حاضرنا ومستقبلنا .

وبعد ان يكتب — محاورات مع الباب العالي — ويتحدث مع الوالي ، يعود الى الوالي ثانيه ، حيث اقيمت « مدينة العمال » ، يصلها الشاطر محمد — ويقف حائرا ، ويسند ظهره الى الحائط ويبكي — مقدمة القصيدة — ، فقد دمر الوالي كل شيء في المدينة ، واقتاد ناسها ، في طوابير، مسلمين وقوفا رافعي الايدي ، ويطلب الشاعر من المدينة ان تصحو على حالها ، وان ترفع راسها .

● محمود درويش مرة اخرى

تلخصت ردود الفعل التي اثارها خروج محمود درويش وقدومه الى القاهرة بالتمني عليه بالعودة الى فلسطين المحتلة : « لمه يعود الى اسرائيل » .

ومجمل الكلام الذي قيل : ان بقاء درويش في « اسرائيل » افضل بكثير حتى لو بقي هناك في سجنه . ولا يمكن لاي موقع يتخذه خارج وطنه ، ان يتيح له ويدفعه النضال بشكل اجدى وافعل.

غير ان بعض الكتاب والصحفيين ذهبوا مذهبا اخر ، في تبيانهم لردود الفعل التي اثارها درويش .

فقد كان قدومه بالنسبة اليهم ، فرصة لا تعوض ، لنهش وتسفيه الاختيار الفكري للشاعر . والقاء تبعات الخروج ، على اختيار الشاعر المبدئي ، والنظري . وهؤلاء هم انفسهم ، الذين طالما هزجوا له وهو في الارض المحتلة. وطالما سكتوا عن النقد الصحيح لموقع الرجل انذاك ، هناك .

ان هؤلاء الكتاب يراوحون بين الغباء والانتماء اليميني . ففي الوقت الذي يحتدم فيه النضال الفلسطيني ، طليعة النضال العربي ، يقف هؤلاء بعيدين عنه ، متذرعين بـ « ماساة الواقع العربي » — كما يقول ريمع مطر في الحوادث ٢٦ شباط موجها كلامه الى درويش — « الذي يوشك ان يعتصرك، والذي لا شك انك قد احسست بشواظه حتى في ايام المجامله والترحيب » . هكذا يكتب «الحوادث»

ان الكتاب اليمينيين الذين لا يرون في النضال الفلسطيني ، وبنى هذا النضال ، كموقع حيوي واساسي ومتقدم.. من الطبيعي ان يحيوا اسم « الروس » ويشتم « الحزب الشيوعي الاسرائيلي » ، ويشتم حتى .. حتى « الدولة العلمانية الفلسطينية » . مثل انعام الجندي (الدستور ٢٢ شباط). حتى يصلوا بذلك الى تخطئة انحياز الشاعر الفكري .

ان كانا مثل انعام الجندي ، يرى ان السؤال الاساسي المطروح على محمود درويش هو : « من سيسمح لشعبك ان يقاتل » ؟ . وكما تؤكد الكاتب نواياه ، بتحدي رثائه لمحمود درويش، وللجماهير العربيه التي تنتهي اليها « اني ارثي لك يا محمود ، وارثي فيك الملايين » .

وهكذا سيكون سهلا على محمود درويش ، ان يتمن بوضوح ، على اي جبهة عريضة يقاتل الوطنيون الفلسطينيون والعرب ، الان .

ففي الوقت الذي تتعرض فيه قضية فلسطين الى التصفية ، يبادر اليمين الى تيئيس الجماهير العربية . وتجاه نظرة هزيمة حزيران ، لشتم الشعارات التي لا تحملها هي: « شعارات الكفاح المسلح».

ويبقى هناك امام محمود درويش اختياران .

— اما ان يؤدي به قناعته الماركسية الى نقد « الحزب الشيوعي الاسرائيلي» ونقد الاحزاب الشيوعية العربية ، في الموقف من استراتيجية تحرير فلسطين، وبذلك تنتهي القطيعة القائمة بين موقفه الشعري وموقفه السياسي .. نهاية طبيعية ومنطقية . ويتجه بناء على ذلك، لتبني الكفاح المسلح، المعزز بافق تقدمي، كسبيل وحيد للخلاص الوطني .

— واما ان يقع في الخطا . فيتشبث بموقفه السابق الذي يتبع حرفيا خط الاتحاد السوفياتي والاحزاب الشيوعية العربية . وعند ذلك يتحول شعره الى كلام بلا طائل . ويبقى فوق ذلك ، يخوض معركة مع اليمين العربي .. ليست في حقيقتها الاخيرة سوى غبار ناشب حول المعركة الاساسية .

(...)